أمير الشعراء البنغاليين:

السيد إسماعيل حسين الشيرازي

شعره وفكره

بقلم: أ.ق م. عبدالقادر
بنغلاديش

السيد إسماعيل حسين الشيرازي (١٨٨٠م - ١٩٣٠م) هو أحد الشعراء البارزين الذين لعبوا دوراً مهما في إنشاء الصحوة الإسلامية بالأدب البنغالي، وقد نال شرفا كبيرا في العقود الأولى من القرن العشرين الميلادي. فقد كان فذاً في أدبه وآرائه وتفكيره، وفاق في هذه المجالات الأديب الشهير مير مشرف حسين، والشاعر العبقري كيقباد (- ١٩٥١م)، ومزّمل الحق، والشاعر الوطني القاضي نذر الإسلام، والقاضي عبدالودود، وغيرهم من الشعراء البنغاليين، بل إنه أخذ طريقا مستقلا في هذا الصدد، فكان طريقه هذا هو الكفاح ضد الاعتداء والظلم وجور المستبدين ومؤامرات أعداء الدين الحنيف.

حينما تزعزعت عروش المسلمين، وانقسمت الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الكبرى، وانتهت الوحدة والأخوة بانقسام الخلافة، التي لم يبق لها من زمن طويل إلا الاسم والرسم، تحت راية الخلافة، نهض السيد جمال الدين الأفغاني (١٨٣٩ - ١٨٩٧م) بكلمة الوحدة والأخوة والوئام والتضامن الإسلامي، وسعى سعيا حثيثا لوقاية الإسلام من الخرافات والوهن، فلبى دعوته مولانا منير الزمان الإسلام آبادي، والسيد إسماعيل حسين الشيرازي (١٩٣٠م)، ومولانا محمد أكرم خان، وغيرهم من المفكرين البارعين، والأدباء البارزين، لتأسيس الوحدة والوئام، وإقامة الأمن والسلام، ورفع المظالم في المجتمع الإسلامي، وقد اشتهرت حركة السيد جمال الدين الأفغاني بالحركة الإسلامية العالمية (Pan Islamic Movement).

وكانت هناك بقايا آثار حركة فيربادشاه ميان وحاجي شريعة الله بفريد فور، فكان هدف حركاتهم الحرية السياسية الكاملة للدول المسلمة عامة، ودولتنا هذه خاصة، وهذه الشخصيات دعت عامة الناس إلى أن يكافحوا لتبديل نظام الحكومة الذي لا يبنى على الإسلام أو يهاجروا إلى بلاد الإسلام، فهاجر الملايين من المسلمين إلى أفغانسيان وفارس وشتى بلاد العرب، وبقي آخرون هناك، وبدؤوا حركة الخلافة لوقاية الخلافة الإسلامية واسترجاع ما بأيدي الإنجليز.

وقد بدأت حركة المعارضة في الهند بقيادة غاندي، واتفق معه مولانا محمد علي ومولانا شوكت علي على طرد الإنجليز من هذه البلاد، وفي هذا الوقت كان حاجي شريعة الله قد توفي، وحل محله في قيادة مسلمي البنغال إسماعيل حسين الشيرازي بعد أن رأى فيه كل من محمد علي وشوكت علي الرجل المناسب لهذا الدور.

وقد سافر وفد مكون من ستة أشخاص في عام ١٩١٢م إلى عاهل تركيا، وكان إسماعيل حسين الشيرازي عضوا في هذا الوفد، فكتب منها رسالة إلى البلاد، ونشرت فيما بعد بعنوان «رحلة تركيا» ثم رجع منها عام ١٩١٣م، فرأى أنه قد نشب خلاف عنيف بين حركة الخلافة وحزب المؤتمر، ومن ناحية أخرى كان قد أسس حزب الولاية بقيادة ديش بندهو صت رنجن، وكان شاعرنا من أعضاء حزب المؤتمر، ولكنه في هذه الفترة ترك حزبه، وقطع كل العلاقات بغاندي.

وتحمل مسؤولية نشر الصحافة الدينية والأدبية والسياسية. هذه هي صورة صادقة للأحوال السياسية التي تدور حولها أشعار إسماعيل حسين الشيرازي.

ولد الشيرازي سنة ١٨٨٠م بمديرية شيرازغنج، وبدأت حياته الشعرية منذ وقت مبكر، فقد بدأ قرض الشعر وهو طالب بالصف الرابع من المرحلة الابتدائية، ونال إحدى الجوائز وهو في الصف الخامس عندما ترجم قصيدة (النحل والزنبور) من اللغة الإنجليزية إلى البنغالية شعرا، فأثنى بعض من حضر على موهبته الشعرية وعبقريته التعبيرية، في هذه القصيدة فصّل حياة الدودة بحسن الأسلوب والأداء الذي يتردد فيه فكرة الإنسان، وإن كان في القافية شيء من الضعف، ولكننا نعجب حينما نرى أن طالب الصف الخامس قد ترجم قصيدة من اللغة الأجنبية إلى لغة الأم شعرا، حيث إنه ما كان له تبحر في الشعر والشاعرية، ولكن ذهنه الوقاد وملكته الطبيعية قد يسرا له ذلك.

إن الشيرازي قد صنّف في شتى المجالات من الأدب البنغالي، فقلمه يجري في الشعر والرواية والمقالة على السواء، فمن جهوده في الشعر (النار الملتهبة) و(القصيدة التعليمية الكبرى) و(الافتتاح)، و(الإثارة الجديدة)، و(اليأس)، و(قصيدة فتح الأندلس)، و(أهداب الحب) و(تحيات الغناء) وغيرها، إلى جانب أنه صنف

راي نندني، تارا بائي، فيروزه بيغم، نور الدين، وغيرها من الروايات البارعة، كما أنه صنف (السفر إلى تركيا) في مجلدين، وشيريا بهرمن (السفر إلى سوريا) وغيرها، من كتب الرحلات، وما عدا ذلك فقد ألف عددا ضخما من المقالات التي تدل على سعة علومه ومعارفه، وأيضا تدل على تفكيره في بناء المجتمع الإنساني على أساس النموذج الإسلامي، فمن أشهر مقالاته (الفكرة الخيرية)، و(تعليم البنات) و(تعليم الأدب والسلوك) و(حياة المرأة التركية) و(تمدن المسلمين في الأندلس) وغيرها.

إن السيد إسماعيل حسين الشيرازي كان أديباً كما أنه كان شاعرا، وإن دراسته الأدبية كانت عند خمود الأدب البنغالي لدى الأدباء المسلمين بعد مير مشرف حسين وكيقباد وقبل مجيء القاضي نذر الإسلام، وقد نشر «انل فربا» أولا في عام ١٩٠٠م حيث نجد فيها تصويرا صادقا لهذا العصر، ووصف أحوال المسلمين في هذه الدولة، وفي هذه الفترة نجد أن الشعراء والكتاب الهنود قد انهمكوا بالأساطير والخرافات الاجتماعية، وهذه الأفكار الضالة قد تركت أثراً ملموساً في أعمالهم الأدبية، ومن ناحية أخرى نجد أن الشاعر الشيرازي حاول أن يدخل الأفكار الصحيحة في أعماله الأدبية وقد وفق في كفاحه ومحاولته لبيان مميزات الدين الحنيف وتأييد أصول الإسلام في المجتمع بأشعاره وأعماله الأدبية توفيقاً كبيراً، فحياة شاعرنا تصوير صادق لكفاح متواصل في هذا الصدد، وكان كفاحه هذا ضد الملحدين والمستبدين.

إن الشيرازي قضى حياته مفكرا في إصلاح القوم والبلاد، وعبر عن ذلك بأشعاره، ولكن الأصول التعبيرية والقيم الأدبية أقصرمن عاطفته وحرارة قلبه، حينما طبع «انل فربا» كثر الكلام حولها، وقد ذاعت شهرته من قبل، فلذا صار هدفا للأدباء، لأن أشعاره كانت مملوءة بالخيال والعاطفة بلغة بليغة فصيحة ومعان عميقة مع أنه ذكر فيها آثار الثقافة القديمة للإسلام والمسلمين وتاريخ المسلمين الذهبي.

بذل الشاعر قصارى جهوده في استرجاع ماضي المسلمين المجيد وعزهم التليد، وأراد أن يثير عواطف قومه، ويثبت حب بلاده في قلوب شعبه بأشعاره الثورية، وإن حدّ القومية عنده هي القومية التي تكون بالدين والمذهب، ونظريته هذه خلاف النظرة القومية العنصرية. إن شعراء الهنود في سلطة الإنجليز بذلوا جهودهم لتأسيس القومية الهندوكية، وإلى جانب آخر كان رائد القومية الإسلامية بالشعر السيد إسماعيل حسين الشيرازي ومزمل الحق وكيقباد. إن القومية الهندوكية تبنى على الدين الهندوكي، فلذا كان موضوع أشعارهم حينئذ يدور حول دينهم ووقائع تاريخهم، أو الأخبار التي تناسب مآثر تاريخهم.

ونحن نرى أنه ما كان للمسلمين من سبيل إلى النجاة إلا أن يرسم أدباؤهم عندهم مآثرهم الغابرة، فبدؤوا يدرسون الأدب والشعر، وشرعوا يثيرون الناس بالقومية الإسلامية، وهذه القومية كانت موضوعاً أساسياً في شعر إسماعيل الشيرازي. كما لعب دورا خطيرا في إصلاح القوم والوطن بأعماله الأدبية وقد نبذ الحياة في أغلال الاستعباد وفقدان الحرية ودعا إلى حياة جديدة وهي حياة الحرية والاستقلال، كما أبعد الظلمة الحالكة التي أحاطت بآفاق الهند بانحطاط الدولة على أيدي الإنجليز بمؤامرات مير جعفر علي خان ويار لطيف وامي صاند وراي ولوو، وأنشأ فكرة جديدة في نفوس مسلمي الهند وأشعاره توضح هذه الفكرة.

والشيرازي وإن استخدم ألفاظا سنسكريتية وعبارات مغلقة غريبة، فإننا نجد في أشعاره سلاسة ورقة يلذ بها القارئ، حيث إن القراء لا ينظرون إلى حسن اللفظ فقط بل يلتمسون ما فيه من حسن الأداء وعمق المعنى الذي يشبه حياتهم العادية، وهذه هي ميزته الفذة، ومن هذه الناحية نحن نستطيع أن نقول إن الشيرازي قد أثر في الشعر البنغالي تأثيرا خاصا بالفكرة العقدية، فلذا سعد بنيل شرف الريادة في هذا المجال، وصار مثالا حيا للشعراء بعده.

إن هدفه كان اطراح الآلام والمصائب عن الأمة البنغالية المسلمة خاصة، وعن جميع الأمة عامة، وإن كان لم يدرك النجاح التام، ولكنه قد خطا الخطوات الأولى القوية في هذا الموضوع.

قد تختلف موضوعات أشعار الشيرازي باختلاف الأزمنة وأحوال السياسة، فقد بذل أقصى جهوده وكفاحه لإزالة العوائق عن الحياة الفردية والاجتماعية بأشعاره الحماسية، فأشعاره في جميع مؤلفاته تجري على نسق خطابي، فاضطرمت الرغبة في الدعوة والتبليغ في قلوب الخاصة والعامة من الناس، فقد هدى الأمة إلى الطريق القويم وهو طريق الفلاح والنجاح، وشجع الأمة على طلب العلم وطرح الكسل والزخرفة، ولزوم العمل والتعليم العسكري للحفاظ على البلاد، ودعاهم إلى نشر تعاليم القرآن والحديث وتأليف كتب السيرة.

وأخيرا نستطيع أن نقول إن إسماعيل حسين الشيرازي هو من أعلام الإسلام الذين أسهموا في تأسيس الحضارة الإنسانية بكدهم وجهودهم، ومسحوا العبرات من عيون البائسين المعدومين بمساعيهم وخدماتهم الجليلة وملأ قلوبهم بالأمل بالأشعار البنغالية. كافح ضد الإنجليز والمستبدين والمتعصبين، فنجحت مساعيه أيما نجاح.

---

* أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية والفارسية - جامعة شيتاغونغ.